﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٥٨﴾ [الإسراء: 58]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تهديد المشركين بعموم الإهلاك للظّالمين

لمّا عرَّض سبحانه بالتهديد للمشركين في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾، وتحدّاهم بقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ﴾؛ جاء بصريح التَّهديد وتعميمه بأنَّ كلَّ قرية مثل قريتهم في الشِّرك سيعمُّها الإهلاك أو العذاب[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَرۡيَةٍ﴾: أصلها من (قري)، والقاف والرّاء والحرف المعتلُّ أصل صحيحٌ يدلُّ على جمع واجتماع، من ذلك القَرْيَةُ، سُمّيت قرية لاجتماع الناس فيها، وإذا همز هذا الباب؛ كان هو والأوَّل سواء، ومنه القُرآنُ، كأنَّه سُمّي بذلك لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص وغير ذلك[2]، ولم يأتِ من التركيب في القرآن إلّا القرية، وجمعها (القُرى)[3]؛ فالقَرْيَةُ اسم للموضع الذي يجتمع فيه النَّاس، أو النّاس جميعًا[4]، ولهذا يحتمل المعنى المُراد في الآية الموضعَ أو أهلَه.

2) ﴿مُهۡلِكُوهَا﴾: (هلك) الهاء واللّام والكاف أصل يدلُّ على كسرٍ وسقوطٍ، منه الهَلاكُ: السُّقوط، ولذلك يُقال للميّت: هَلَكَ[5]، والهَلَاكُ في القرآن على أوجه منها: نفاد الشيء؛ كقوله تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقة: 29]، ومنها: هلاكُ الشيء باستحالة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 141.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قري).
(3) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (قري).
(4) الرّاغب، المُفردات: (قرى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).

وفساد؛ كقوله: ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ [البقرة: 205]، ومنها: الموت؛ كقوله: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النّساء: 176]، ومنها: بُطلان الشّيء من العالم وعدمه رأسًا، وذلك المُسمَّى فناء[1]، وهو المعنى المقصود في الآية.

3) ﴿مَسۡطُورٗا﴾: (سطر) السّين والطّاء والرّاء أصلٌ مطَّردٌ يدلُّ على اصطفاف الشَّيء[2]، والسَّطْرُ والسَّطَرُ: الصَّفُّ من الكتابة، ومن الشَّجر: المغروس، ومن القوم: الوقوف، وسَطَّرَ فلان كذا: كتب سطرًا سطرًا، قال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ [القلم: 1]، وجمعُ السَّطر: أَسْطُرٌ، وسُطُورٌ، ومنه معنى الآية: ﴿مَسۡطُورٗا﴾؛ أيْ: مثبتًا محفوظًا[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قضاء الله بإهلاك القرى الظالمة وعذابها

يؤكِّدُ الله تعالى ما حذَّر به المشركين في آخر الآية السابقة من عذابه، ويتوعَّد الكفَّار بأنَّه ما من قريةٍ كافرةٍ مُكذِّبةٍ للرُّسل، إلّا وسيُنزل بها عقابه بالهلاك في الدُّنيا قبل يوم القيامة، أو بالعذاب الشَّديد لأهلها، كتابٌ كتبه الله، وقضاء أبرمه لا بدَّ من وقوعه، وهو مسطورٌ في اللَّوح المحفوظ[4].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّه إذا كَثُر الخَبثُ في النَّاس من الفسوق والفجور والمعاصي؛ قَرُب الهلاك لجميعهم، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا ظهر الزِّنى والرِّبا في قريةٍ؛ أَذِن الله في هلاكهم"[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٖ﴾:

تعميمُ حكمِ الإهلاكِ أو التَّعذيبِ على كلِّ القرى المُكذِّبةِ

صُدِّر قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ

(1) الرّاغب، المُفردات: (هلك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سطر).
(3) الراغب، المُفردات: (سطر).
(4) نخبة منَ العلماء، التّفسير المُيسّر، ص: 287.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 107.

﴿أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾ بحرف (الواو) الدّالِّ على العطف؛ فإنَّ الله ﷻ لمّا ذكر العذاب بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾، وكان المعنى: فاحذرونا، فإنّا أبدنا الأممَ السالفة، ودمَّرنا القرى المشيَّدة؛ عطف عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا﴾؛ لبيان عموم الحُكم لكلِّ القُرى مع أهلها، فلا بدَّ وأن يرجع حالها إلى أحد أمرَيْن: إمّا الإهلاك، وإمّا التَّعذيب[1].

معنى (إنْ):

دلالةُ القصرِ بالجمعِ بين النَّفي والإثباتِ

استُعمل حرف النفي (إن) في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾، وهو حرف موضوع لنفي الحال عند الإطلاق، وإن قُيِّدَ كان بحسب ذلك القيد[2]، وهي أعرق في النَّفي من (ما)، وقد أفاد في هذه الآية أسلوب القَصْر المسْتَفاد من جَمْعِ النفي بـ (إن) وَالاسْتِثْناءِ بـ (إلّا).

معنى ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾:

استغراق جميع القرى الكافرة بالعذاب

جاء حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾، وذهب بعضه المُفسِّرين إلى أنَّها حرف أصليٌّ لبيان الجنس[3]، وفيه نظر من وجهيْن: أحدهما: (من) الَّتي للبيان لا بد أن يتقدَّمها مُبهم ما تُفسِّره؛ كقوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾ [فاطر: 2]، وهنا لم يتقدَّم شيءٌ مبهمٌ.

والثّاني: أن شرط ذلك أن يسبقها مُحلًّى بأل الجنسية، وأن يقع موقعها (الّذي) كقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحجّ: 30][4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 358.
(2) فاضل السّامرّائيّ، معاني النحو: 4/ 199.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 466.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 12/ 317.

وذهب بعضهم إلى أنّها حرف جرٍّ زائد، والنُّكتة في زيادتها بعد (إن) النّافية هو تأكيد استغراق مدخولها، باعتبار الصِّفة المُقدَّرة؛ أي: استغراق جميع القرى الكافرة؛ كيلا يحسبَ أهل مكة عدم شمولهم[1].

نكتة تنكير ﴿قَرۡيَةٍ﴾:

قصد العموم والشّيوع للقرى الموصوفة

وردت في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾ كلمة ﴿قَرۡيَةٍ﴾ نكرةً، والنُّكتة في تنكيرها هو قصد العمومِ والشّيوعِ، فالهلاكُ والعذابُ شاملٌ لجميع القرى الكافرة على عمومها.

غرضُ حذف صفة القرية:

حذف الصِّفة كثير، ودلالةُ السّياق على تعيين المحذوف

ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾ كلمة ﴿قَرۡيَةٍ﴾ مُطلقةٌ من غير تقييد، فذهب بعض المُفسِّرين إلى العموم الظَّاهر بأنَّ الله تعالى يُخبر في هذه الآية أنَّه ليس مدينةً من المدن إلا هي هالكة قبل يوم القيامة بالموت والفناء، هذا مع السَّلامة وأخذها شيئًا فشيئًا، أو هي معذبة مأخوذة مرةً واحدةً، فهذا عموم في كلِّ مدينة[2]، فيكون فناء القرى الصالحة بالموت؛ وأمّا الطالحة؛ فبالعذاب[3].

القائلون بالتَّقييد بالصِّفة:

وذهب بعض المُفسِّرين إلى التقييد بالصفة، وأنَّ المُراد: القرى الكافرُ أهلها لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ في سورة هود [117]، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ في سورة القصص [59]، وحذف الصِّفة في مثل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 142.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 466.
(3) مُقاتل، التّفسير: 2/ 537.

هذا معروفٌ كقوله تعالى: ﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٖ غَصۡبٗا ٧٩﴾ [الكهف: 79]؛ أي: كل سفينة صالحة، بقرينة قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: 79].

والرأي: الثاني المقيَّد بالصفة أقرب إلى الصَّواب؛ لأنَّ هناك آياتٍ كثيرةً تؤيِّده، وليس المقصود شمول ذلك القرى المؤمنة، على معنى أن لا بدَّ للقرى من زوال وفناء في سنَّة الله في هذا العالم؛ لأنَّ ذلك معارض لآيات أخرى، ولأنَّه منافٍ لغرض تحذير المشركين من الاستمرار على الشِّرك، فلو سلَّمنا أنَّ هذا الحكم لا تنفلت منه قرية من القرى بحكم سنَّة الله في مصير كل حادثٍ إلى الفناء لما سلَّمنا أن في ذِكْر ذلك هنا فائدة[1].

بلاغة القصر ونوعه:

تهديد أهل مكة بالهلاكِ بسبب الظُّلم

ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ﴾ أسلوب القَصْر المُسْتَفاد من الجمع بين النَّفي بـ (إن) والاستثناء بـ (إلّا)، وهو قصرُ موصوفٍ على صفةٍ قصرًا إضافيًّا، غرضُه: قصْرُ القُرى الظَّالمة على الهلاك أو التَّعذيب، وهو يشمل جميع القُرى الكافرة؛ لدفع توهُّم اعتقاد أهل مكَّة عدم شمولهم[2].

نكتةُ الالتفاتِ بالضَّميرِ: ﴿نَحۡنُ﴾:

استحضارُ عظمةِ الجبّارِ، والدَّعوةُ إلى الاعتبارِ

ثمة التفات بديع في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا﴾؛ وهو التفات من الغيبة في الآية السّابقة: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ إلى التكلُّم في هذه الآية بالضَّمير ﴿نَحۡنُ﴾ الدّالِّ على العظمة وعلوِّ القدر، وتنزيله منزلة الجمع؛ لتعدُّد صفاته الحميدة ومواهبه الجزيلة، فإنَّ مثل هذا التَّعبير يُعبِّر به الملوك والعظماء النافذ أمرهم ونهيهم، وفيه أيضًا إدخال المهابة في قلوب العباد[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 141.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 142.
(3) الشِّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.

براعةُ التَّعبير بـ﴿مُهۡلِكُوهَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

تـوعُّـدُ الـكـفَّـار بـالـهـلاك فـي الـحـال والاستقبال

ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا﴾ استعمال اسم الفاعل ﴿مُهۡلِكُوهَا﴾، وقد جاء على صيغة الجمع للتعظيم، مفرده (مُهلِك)، اسم فاعل من (أهلك) الرباعي، والمُراد من الإهلاك: الاستئصال بالكلّية وهو في الأحياء بالموت، وفي العُمران بالخراب والفناء، وفي اختيار صيغة الفاعل في هذا الموضع - وإن كانت بمعنى المستقبل - من الدّلالة على التَّحقُّق والتَّقرُّر ما فيه؛ والمعنى: ما من قرية من قرى الكفّار إلا نحن مُخرِّبوها البتَّة بالخسف بها، أو بإهلاك أهلها بالمرَّة؛ لما ارتكبوا من عظائم المُوبقات المُستوجِبة لفنائهم[1].

فائدة التَّقييد بالظَّرفيّة ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

تحذير المشركين بـقُـرْب الـهـلاك الموعود

تقيَّد الإهلاك في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بالظّرفيّة الزّمانيّة بقوله: ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ لأنَّ الإهلاكَ يومئذٍ غيرُ مُختصٍّ بالقرى الكافرة، ولا هو بطريق العقوبة، وإنَّما هو لانقضاء عُمرِ الدُّنيا[2]، والغرضُ من هذه الآية هو تحذيرُ المشركين من الاستمرار على الشِّرك، فهدَّدهم بأنَّ الهلاك هو في الحياة الدُّنيا، قبل يوم القيامة، كما أنَّ التقييد بكونه قبل يوم القيامة فيه زيادةٌ في الإنذار والوعيد، كقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾ [طه: 127][3].

معنى ﴿أَوۡ﴾ في ﴿أَوۡ مُعَذِّبُوهَا﴾:

تفصيلُ مصير المشركين بين عذاب الاستئصال أو عذاب الانتقام

ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ﴾ استعمالُ حرف العطف ﴿أَوۡ﴾ الدّالِّ على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 98.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 180.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 141.

التَّقسيم، وهو تقسيمٌ يُفيد تفصيل مصيرهم بين الإهلاك التّامِّ أو العذاب الدُّنيويِّ بالقتل والذُّل والأَسْرِ والخوف والجوع، فإنَّها تُؤذن بأنَّ أحد الأمريْن غير مُعيَّن الحصول؛ لأنّه مستقبلٌ، ولكن لا يخلو حالهم عن أحدهما[1].

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿مُعَذِّبُوهَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

توعُّد الكفّارِ بالهلاكِ في الحالِ والاستقبالِ

في قوله تعالى: ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ جاء استعمال اسم الفاعل ﴿مُعَذِّبُوهَا﴾ على صيغة الجمع للتَّعظيم، ومفرده (مُعذِّب) اسم فاعل من (عذّب) الرباعي، وفي اختيار صيغة الفاعل في هذا الموضع وإن كانت بمعنى المستقبل من الدَّلالة على التحقُّق والتقرُّر ما فيه، والمعنى: ما من قرية من قرى الكفار إلّا ستُهلَك، أو تُعذَّب دون ذلك من قتل كبرائهم وتسليط المسلمين عليهم بالسَّبي واغتنام الأموال وأخذ الجزية، وغيرها من صور العذاب[2].

علَّةُ عطفِ العذابِ على الإهلاكِ:

تهديدُ المشركين بأعلى العذابِ وأدناه

ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ عطفُ العذاب على الإهلاك على سبيل التدلِّي والتَّقسيم، من الأعلى وهو الإهلاك بالاستئصال والموت، إلى ما هو أدنى منه من أنواع العذاب الدُّنيوي من البلاء والمِحَن والفِتَن والنَّقص في الأموال والأنفس والثَّمرات، وكالقَحط الذي قال بعض المفسِّرين بأنَّه سبب نزول الآية.

نكتة توكيد العذاب بالمفعول المُطلق:

زيادةُ التَّهديد بعذاب الله البالغ الغاية في الإيلام والإيجاع

جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ توكيد العذاب بالمفعول المُطلق دون الإهلاك، فلم يَرِدْ على نحو: (مهلكوها إهلاكًا شديدًا)؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 09/ 152.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 358.

الإهلاكَ موتٌ واستئصالٌ تُدمَّر به القرى الظالمة دُفعة واحدة، كالذين أرسل الله عليهم ريحًا شديدة ترميهم بحجارة من طين مُتتابع، وهم قوم لوط، وكمَن أخذته الصيحة، وهم قوم صالح وقوم شعيب، وكمَن خسف الله به الأرض كقارون، وكمَن أغرقه جلَّ وعزَّ، وهم قومُ نوح وفرعونُ وقومُه، كم قال سبحانه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: 40]، أمّا عذابُ الانتقام؛ فهو ابتلاء القرى بالفتن والمصائب والجفاف وسائر أنواع البلاء مع بقائها، أو بالسيف والذُّل والأسر والخوف والجوع، وهو يأتي على أهل القرية الظَّالمة، مثل صرعى بدر، كلُّ ذلك في الدنيا[1]، ولمّا كان عذابُ الدُّنيا يجري على نظام أحوال الدَّنيا: من شدَّةٍ وضعفٍ وعدم استمرار، أكَّده بالمفعول المُطلق عذابًا وبالصِّفة شديدًا؛ للدّلالة على أنَّه بالغ الغاية في الإيلام والإيجاع زيادة في تهديدهم.

وذهب بعضهم - في رأيٍ مرجوح - إلى أنَّ الله توعَّد أهل القرى الظالمة بعذاب شديد لا يُكْتَنَهُ كُنْهُه، والمُراد به ما يعمُّ البلايا الدّنيوية من القتل والسَّبي ونحوهما، والعقوبات الأخروية ممّا لا يعلمه إلّا الله تعالى، حسبما يفصح عنه إطلاق التعذيب عمّا قيَّد به الإهلاك من قبلية يوم القيامة، ولا يخصُّ بالبلايا الدّنيويّة، كيف وكثير من القرى العاتية العاصية قد أُخِّرت عقوبتها إلى يوم القيامة؟ [2].

نكتةُ فصل قوله: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾:

ورد قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ مفصولًا عن الكلام قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ﴾؛ لوجود

رُفعت الأقلامُ، وجفَّتِ الصُّحفُ، وكُتِبَ القَدرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 141.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 98.

كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتّحاد الجملتيْن اتّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنزَّل الثّانية من الأولى منزلة نفسها[1]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ نعتًا للهلاك والعذاب المذكوريْن، فالإهلاك والتَّعذيب مكتوبان في اللَّوح المحفوظ، لم يغادَرْ منه شيءٌ إلّا بُيِّن فيه بكيفيّاته وأسبابِه الموجبةِ له ووقتِه المضروبِ له[2].

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ:

أقـــدارُ الـلـهِ عظيمةٌ رفيعةُ القَدْرِ

ورد في قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ إشارةً إلى الأمر العظيم من الإهلاك أو التَّعذيب، فاستُعمِل للدَّلالة على عِظَمِ قدره وبُعْدِ منزلته اسمُ الإشارة المُخصَّص للبعيد؛ استعارة لكون المشار إليه بعيد المكانة بعد ارتفاعٍ مجازيٍّ، وهو العِظَمُ.

معنى الظَّرفيّة في ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾:

احـتـواءُ الـلـوحِ المحفوظ على كلِّ المقادير

استُعمِل في قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ الدَّالِّ أصالة على الظّرفيّة؛ بمعنى: أنَّ كتاب الله المحفوظَ يشتمل على كل المقادير المكتوبة، لا يُغادر منها شيءٌ إلّا بُيِّن فيه بكيفيّاته وأسبابه المُوجِبة له ووقته المضروب له.

معنى (أل) في ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾:

تـعـريـف لـفـظ الـكـتـاب بـين الـجـنـسـيَّـة والعهديَّة

ورد في قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ مُعرَّفًا بأداة التعريف (أل)، ويحتمل نَظْمُ الآية أن يكون لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ مُستعارًا لعلم الله وسابق تقديره، فيكون تعريفه للعهد، أو أن يكون قد أُريد به الكتب المنزَّلة على الأنبياء، فيكون تعريفه للجنس، فيشمل القرآن وغيره[3].

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 180.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 142.

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

اختصاصُ اللَّوح المحفوظ بالاشتمال على كلِّ المقادير

في قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ تقديم شبه الجملة ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على مُتعلَّقها ﴿مَسۡطُورٗا﴾؛ لإفادة الاختصاص؛ أي: اختصاص اللَّوح المحفوظ بالاشتمال على مقادير الإهلاك والعذاب وسائر المُقدَّرات صغيرةً أو كبيرةً، كما أخبر النَّبيُّ ﷺ: "إنَّ أوَّلَ ما خلق اللهُ القلَم، فقال له: اكتُبْ، قال: ما أكتُبُ؟ قال: اكتُبِ القدَرَ: ما كان، وما هو كائنٌ إلى الأبَدِ"[1]، والتّقديم كذلك لرعاية تناسب الفواصل مع الآيات السّابقة.

فائدةُ التَّعبير بـ﴿مَسۡطُورٗا﴾ مادَّة وصيغة:

كتابةُ المقادير في اللوح المحفوظ ثابتةٌ محفوظةٌ

ورد في قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ التَّعبير بـ﴿مَسۡطُورٗا﴾، وهو اسم مفعول من (سطر) بمعنى المكتوب أسطارًا[2]، والسَّطْرُ والسَّطَرُ: الصَّفُّ من الكتابة، وسَطَّرَ فلان كذا: كتب سطرًا سطرًا، قال تعالى: ﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: 1]، ومعنى كونه مسطورًا؛ أيْ: مثبتًا محفوظًا[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإهلاكُ والعذابُ والأخذُ:

عمومُ العذابِ، واختصاصُ الإهلاكِ بالظالمين

يتجلّى الفرق بين ألفاظ الإهلاك والعذاب والأخذ في علاقة العموم والخصوص بينها؛ فأمّا العذاب فعامٌّ سواءً كان بسبب ذنب أو بسبب غيره، فمن شواهد العذاب المسبوق بذنب قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة: 10]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾ [آل عمران: 4].

(1) أخرجه أبو داود، السُّنن، الحديث رقم: (4700)، وأحمد، المُسند، الحديث رقم: (22705) بنحوه، والتّرمذيّ، السُّنن، الحديث رقم: (3319) باختلاف يسير.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/ 466.
(3) الرّاغب، المُفردات: (سطر).

ومن شواهدِ العذاب غير المسبوق بذنب قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: 49].

وممّا يؤكِّد أن عذاب فرعون لبني إسرائيل لم يكن مسبوقًا بذنب منهم قولُ الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: 4][1].

أمّا الإهلاك؛ فخاصٌّ بالكفّار عقوبة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: 59]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: 117].

وأمّا الأخذ؛ فهو في الأصل حَوْزُ الشَّيء وتحصيله، وذلك تارة بالتّناول، نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقهر نحو قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النّازعات: 25]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ [النّحل: 61]، فتخصيص لفظ المؤاخذة تنبيه على معنى المجازاة والمقابلة لما أخذوه من النِّعَم، فلم يُقابلوه بالشُّكر[2].

(أليم) و(شديد) و(عظيم):

عـذاب العظيم
سبحانه عظيمٌ
شديدٌ أليمٌ

في القرآن الكريم عدَّة أوصاف للعذاب؛ فوصفه الله بأنَّه أليم، وشديد، وعظيم، ويتجلّى الفرق بينها في القَدْر والأثر المترتِّب عنها، فأمّا العذاب الأليم؛ فهو فعيل بمعنى مُفْعِل؛ أيْ: يتسبَّب لصاحبه في غاية الألم، وهو عذابٌ حِسّيٌّ شديدٌ مُوجِعٌ، أو معنويٌّ كعذاب الحَسَرات.

وأمّا وصف الشّديد؛ فهو وصف للعذاب في حدِّ ذاته، فهو في غاية الشِّدَّة والقوَّة، بالغ الذّروة فيها.

(1) داود، الفروق الدلالية، ص: 342.
(2) الرّاغب، المُفردات: (أخذ).

وأمّا وصف العذاب بالعظيم؛ فلأنَّه منسوبٌ لقدرة اللّه، وعذاب العظيم عظيم، فالبشر مهما بالَغَ في أنواع العذاب إلّا أنَّه محدود؛ لأنَّه ينتهي بموت المُعذَّب، فيقتصر تعذيبهم على الدُّنيا، وكم من شخص هرب من مُعذِّبه بالموت.

أمّا عذاب العظيم - والعياذ باللّه - فلا حدَّ له ولا مقدار، فيعجز الإنسان عن تخيُّل قدره، واللّه ﷻ قادرٌ على أن يُعَذِّب الإنسان في الحياة وبعد الموت إلى أبد الآبدين؛ كقوله تعالى في جزاء فرعون: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: 45 - 46].

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 28 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-25-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 28 : المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-25-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9844230 بتاريخ 2024/11/05م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»